جوليا
أو
هيلويز الجديدة
لجان جاك روسو
بقلم احمد حسن الزيات

مقدمة المؤلف :

لا بد للمدن الكبيرة من مسارح ، وللشعوب الفاسدة من قصص . ولقد شاهدت أخلاق عصري ثم قدمت هذه الرسائل إلى النشر ؛ وليتني عشت في مصر تحملني آدابه على أن أقدمها إلى النار !

أنا — وإن كنت أحمل هنا لقب الناشر — قد عملت بيدي في هذا الكتاب فلا أضمر نفسي فيه . فهل صنعته كله ؟ وهل هذه الرسائل بأسرها من نسج الخيال ؟ ماذا يهمكم من هذا أيها الناس ؟ إنها عندكم ولا ريب حديث مفترى

كل أمرئ حر الخلال يجب عليه أن يعترف بما ينشر من الكتب ؛ فأنا أضع اسمي على رأس هذا الكتاب لا لأسجل ملكيته ، ولكن لأتحمل تبعته . فإذا كان فيه شر فالي مرجعه وعلي إثمه ، وإن كان فيه خير فلا أبتغي من ورائه شرفاً ولا نباهة

إذا كان هذا الكتاب كتاب سوء فأنا مجبر على استلحاقه والاعتراف به . ذلك لأني لا أحب أن أظهر في عيون الناس خيرا مما أنا عليه في الواقع

أما حقيقة الوقائع التي تدور عليها حوادث القصة ، فأصرح بأني ذهبت مرارا إلى بلد العاشقين فلم يرد على سمعي ذكر للبارون ديتاج ولا لابنته ، ولا للسادة : دي ورب ، واللورد إدوار بومستون ، ودي ولمار . كذلك أنبه القارئ إلى أن وصف الأمكنة قد ناله التحريف البالغ في مواضع كثيرة ، إما لأن الكاتب يريد أن يخدع القارئ ، وإما لأن الواصف لا يعرف أكثر من ذلك

ذلك كل ما أريد أن أقوله ؛ ولكل امرئ أن يفهم الأمر على ما يشاء

لم يوضع هذا الكتاب ليسير في الناس لأنه لا يرضي إلا القليل منهم ؛ فالمتأدبون من أهل الذوق سينفرون من أسلوبه ؛ والمتزمتون من ذوي الوقار سيفزعون من موضوعه ؛ والذين لا يعتقدون بالفضيلة سيرون ما فيه من العواطف خارجا عن الطبيعة . سيسخط البر والفاجر والفيلسوف ، وسيؤذي شعور الفتاة اللعوب ، ويسوء كرامة المرأة الصالحة : فليت شعري من يرضى إذن ؟ لعله لا يرضى سواي ؛ ولكن الحقق أن السخط عليه لن يقف عند حدود الوسط

إذا أمضيت النية على قراءة هذه الرسائل فادرع بالصبر على ما تجد فيها من أخطاء اللغة ، وشقشقة الأسلوب ، ووضع الفكرة المطروقة في العبارة المنمقة . قل لنفسك قبل أن تقرأ : إن الذين كتبوها لم يكونوا فرنسيين ولا عبقريين ولا أكاديميين ولا فلاسفة ؛ وإنما هم بين ريفي وأجنبي وأليف عزلة وحديث سن . وكلهم أشبه بالأطفال الذين تصورلهم مخيلاتهم الشاعرة أن من الفلسفة ما يهذون به من برىء الحديث

لِمَ أخشى أن أجهر بما في نفسي ؟ إن هذا

الكتاب على لهجته الغوطية أقرب إلى نفع النساء من كتب الفلاسفة . بل لعله يفيد أولئك اللاتى لا زلن يحتفظن بأثارة من حب الصلاح والنزاهة وهن يحيين حياتهن المضطربة المهوشة . أما أثره فى الفتيات فذلك أمر آخر ، إن الفتاة العفيفة لم تقرأ قصة قط ؛ ولقد وضعت لهذه القصة عنواناً ينبه القارىء وهو يفتحه إلى طبيعة الكتاب الذى يريد أن يقرأه . فالفتاة التى تجرؤ على أن تقرأ منه صفحة واحدة على الرغم من هذا العنوان هى فتاة خاسرة . وليس لها أن تعزو خسارتها إلى هذا الكتاب ، فان الداء قد خامرها من قبله . فمن بدأت منهن القراءة فلتتمها ؛ فليس بعد ذلك فى نفسها ما تخسره ، ولا فى هذا الكتاب ما تحذره

إن الراهد المتحنث إذا قرأ الجزء الأول من هذا الكتاب فامتعض ثم رماه وانفجر بالحنق على ناشره ، لا أعيب إسرافه ولا أشكو ظلمه ؛ ولو كنت مكانه لما فعلت غير ذلك . ولكنه إذا قرأه كله ثم جرؤ بعد ذلك أن يعذلنى على نشره ، فليقل ذلك — إن شاء — لكل ذى سمع من الناس ما عداى ؛ فانى لا أستطيع أن أحمل نفسى على احترام مثل هذا الرجل

اذهبوا أيها الكرام الذين أحببت العيش فيهم وحمدت الخلاط بهم أنتم أيها الذين واسونى على سبائب اللئام وشتائم الفجرة ! اذهبوا بعيداً فابحثوا عن أمثالكم . فروا من المدن فان تجدوهم فيها . اذهبوا إلى الخلوات المتواضعة فآنسوا زوجين مخلصين تتوثق بينهما وبينكم الألفة ، ورجلاً ساذجا حساساً يجد فى طبعه الميل لما أنتم عليه ، ومنعزلاً عن الناس متبرما بالعالم يلومكم على أخطائكم وخطاياكم ثم يقول مع ذلك فى حنان وعطف : « هذه هى النفوس التى لا بد منها لنفسى ! »

الجزء الأول

الرسالة الأولى

الى جوليا

أشعر كل الشعور أن لا مناص يا آنستى من الهرب منك . ولقد كان من اللازم أن أنتظر أقل مما انتظرت ، أو بالحرى كان ينبغى ألا أراك قط . ولكن ما العمل اليوم وكيف الخلاص ؟ لقد وعدتنى الصداقة ؛ فانظرى إلى اضطرابى ، وفكرى فى حقيقة ما بى ، ثم أشيرى علىّ

تعلمين أنى لم أدخل بيتكم إلا عن دعوة من السيدة والدتك . علمتْ أنى ثقفت بعض مواهبى ثقافة محمودة ، فرأت من المفيد فى بلد يعوزه العلمون أن تستخدم هذه المواهب فى تربية ابنتها التى تعبدها . وأنا بدورى قد زهانى أن أزين هذا الجمال الطبيعى البالغ ببعض الأزهار ، فجرؤت على أن أتعهد بهذه العناية المخطرة دون أن أتسلف النظر إلى ما فيها من الخطر ، أو على الأقل دون أن أقف من خطرها على حذر . لن أقول لك إنى بدأت أؤدى ثمن جرأتى ؛ فانى آمل ألا أذهل عن واجبى فأثقل عليك بحديث لا يليق بسمعك ولا يلتئم مع طبعك ، وأن أقصر عن الاحترام الذى يجب لخلقك وكمالك ، كثير مما يجب لمحتدك وجمالك . أما إذا تألمت فعزائى على الأقل أنى أتألم وحدى . لا أريد سعادة تتكلفها سعادتك

على أنى مع ذلك أراك كل يوم ، وأشعر أنك من غير قصد ولا فكر تضاعفين آلاماً لا تستطيعين أن تشتكيها ، ولا ينبغى لك أن تعلميها

من الحق أنى أعلم الرأى الذى تمليه الفطنة فى مثل هذه الحال لا الأمل ؛ ولو استطعت أن أوفق

فى هذه الفرصة بين الفطنة وبين الاعتبار المناسب لحملت نفسى على اتخاذه ؛ ولكن كيف أجد الوجه الوجيه لأن أترك بيتاً رتبته هى نفسها التى فتحت لى فناءه ، وأغدقت على آلاءه ، ورأت فىّ بعض الغناء لأعز شىء عليها فى العالم ؟ كيف أحرم ذلك الأم الحنون سرورها بأن تفجأ زوجها ذات يوم بتقدمك فى الدروس ، وهى إنما أخفت عنه خبره لهذه الغاية ؟ أينبغى أن أفارقها على هذا الوجه المرذول دون أن أقول لها شيئاً ؟ أيجب أن أصرح لها بموضوع اعتزالى ؟ أليس فى هذا التصريح نفسه إهانة لها من رجل لا يجيز له مقام أسرته ولا طبيعة ثروته أن يعقد أسباب رجائه بك ؟

أما لا أرى يا آنستى غير وسيلة واحدة للخروج من المأزق الذى أنا فيه : تلك الوسيلة هى أن اليد التى ألقتنى فيه تنتشلنى منه . ليأتنى من قبلك العذاب كما يأتينى الخطأ . فأشعرى قلبك الرحمة لى واحظرى علىّ الوجود فى محضرك . أطلعى أهلك على كتابى . أغلق بابك من دونى . اطردينى على الوجه الذى تحبين ، فانى أحتمل كل شىء ولا أستطيع من تلقاء نفسى الفرار منك

أنت ، تطردينى ! أنا ، أهرب منك ! ولماذا ؟ أمن الاجرام أن يكون المرء حساساً بالفضل ، وأن يحب ما يجب على كل امرئ أن يحبه ؟ لا يا جوليا ! إن جاذبيتك بهرت عينى ، وما كانت لتزيغ قلبى لولا الجاذبية الأقوى التى تُحْنيها وتذكيها ؛ تلك الجاذبيـة هى اجتماع الحساسة القوية بالعذوبة الصافية ؛ هى ذلك الرثاء الحنون لآلام الناس ؛ هى ذلك الذهن المستقيم وذلك الذوق السليم اللذان يستمدان نقاءهما من نقاء النفس ؛ هى على الجملة سحر العواطف ، وهو أقوى من سحر الشخص ، وذلك ما أعبده فيك

أنا أسلم بأن المرء يستطيع أن يتخيلك أروع جمالاً من جمالك ، ولكن من المحال أن يتخيلك أجدرَ بالحب وأخلق بالرجل الفاضل مما أنت عليه

أجرؤ أحياناً على أن أزعم وأزهى بأن الله جعل بين حسينا وذوقينا وعمرينا مطابقة خفية . فنحن ما نزال فى زهرة الصبى ، ثميول الطبيعة فينا لا تتغير ، وأهواؤنا لا يبعد أن تتفق

لقد رأينا قبل أن نكتسى الزى الوحيد المعتبد للعالم أن لنا طريقة واحدة فى الحس والنظر ، فلم لا أجرؤ على أن أتخيل أن ذلك الانسجام الذى أراه بين أحكامنا هو بين قلبينا كذلك ؟ إن من نظراتنا أحياناً ما يتلاقى ، وإن من زفراتنا ما يصعد فى وقت واحد ، وإن من عبراتنا الوارية ...

آه يا جوليا : لو أن هذا التوافق صادر عن بعيد .. لو أن الله سخر لنا .. جميع القوة البشرية ..

آه عفواً ! لقد ضللت فحسبت رغائبى آمالا . إن حرارة رغباتى أعارت موضوعها الأمكان الذى يعوزه

إنى أبصر فى خيفة ورعب ما يتأهب له قلبى من العذاب والألم . لا أحاول أن أغلق ألمى ؛ ولو كان فى وسعى أن أكرهه لكرهته . احكمى على عواطفى إن كانت نقية أو مشوبة بنوع العفو الذى طلبته منك . أغيضى إذا استطعت منبع السم الذى يحيينى ويميتنى ، فلا أبتغى غير أن أحيا أو أن أموت

أنا أضرع إلى قسوتك كما يضرع عاشق إلى رحمتك

أجل لقد وعدتُ . وأقسم لأبذلن الجهد الجهيد فى استرجاع ما غرب من عقلى ، وترسيب هذا الرنق الوليد فى قرارة نفسى . ولكن رحماك ! حولى عنى هذه العين الوديعة التى تشع علىّ الموت . واستترى عن عينى قسماتك وحركاتك وهيئتك وذراعيك ويديك وشعرك الأشقر . اخدعى غباوة

نظراتى الرغيبة . احبسى ذلك الصوت الأخاذ بالقلب فلا يسمعه سامع حتى يتأثر . كونى مخلوقة أخرى ليستطيع قلبى أن يُفيء إلى نفسه

أأقولها لك من غير مواربة ؟ إنك فى الألعاب التى يقتضيها فراغ الأمسية ، ترسلين نفسك أمام جميع الناس على ألفة شديدة الأثر على النفس ، فلا تكونين معى أشد احتشاماً واحتياطاً منك مع غيرى . أقرب الأيام أمس ؛ كنت على وشك أن تمنعينى أن أقبلك عقاباً على مخالفة النظام فى اللعب ، فقاومت مقاومة خفيفة ضعيفة ، ولكنى لحسن الحظ تحاشيت أن أصر . ثم أدركت أن اضطرابى الذى كان يزيد ويزيد سيُشفى بى على الخسارة فأمسكت عن اللعب . آه لو كنت استطعت على الأقل أن أستمتع بهذه القبلة على هواى ! إذن لكانت آخر أنفاسى وآتُ وأنا أسعد الناس !

ناشدتك الله إلا ما تركت هذه الألعاب ، فقد تكون لها عواقب وخيمة . كلا يا جوليا ، كل إنسان له خطره : من الخطر الذى لا حيلة فيه إلى الخطر الذى لا وزن له . إنى أضطرب كلما استُ يدى فى اللعب بدك . ولا أدرى كيف يتفق أن ألقاها دائماً ؛ فلم تكد تقع على يدى حتى تستقلنى رِعدة ويعترينى ذهول . إن اللعب يعمينى بالحمى ، أو بالحرى يصيبنى بالهذيان ؛ فأنا لا أبصر ولا أشعر ، وفى هذه اللحظة المخبولة لا أدرى ماذا أقول ولا كيف أفعل ولا أين أختفى !

وفى ساعة القراءة أجد ضرراً آخر : إذا رأيتك لحظة من غير أمك أو ابنة عمك نَكَّرتِ معارف وجهك فجأة ؛ ثم اتخذت هيئة الجد واصطنعت لهجة الفتور حتى يسلبنى احترامى إياك ، وخوف من عدم رضاك ، حضور البديهة وقوة الحكم ، فأغمغم فى اضطراب ومشقة ببعض الكلمات من درس لولا فطنتك وحكمتك لما استطعت أن تتبعيه . كذلك هذا التفاوت الذى تتكلفينه فى طبعك ومظهرك ينقلب مضرة علىّ وعليك . إنك تؤذينى بهذا التقلب ، ثم لا أستطيع أن أتصور الباعث الذى يخرجك عما عهدت فيك من رصانة العقل . هل لى أن أسألك لماذا تكونين لعوباً مرحة فى الجمع ، ووقورة محتشمة فى الخلوة ؟ لقد كنت أرى أن الأمر يجب أن يسير على النقيض ، وأنك لابد تصورين قسمات وجهك على نسبة عدد الحضور ؛ ولكنى أراك بدل أن تفعلى ذلك تعاملينى على حال مطردة من التردد والاضطراب ، فتصطنعين اللهجة المتكلفة بينى وبينك ، واللهجة المنبسطة بيننا وبين الناس . ساوى بينى وبين غيرى فى حديثك ووجهك ، فلعلى بذلك أكون أخف ألماً وأقل لوعة

إذا كانت الرحمة الطبيعية التى آثر الله بها النفوس النبيلة الحرة تعطف قلبك على شقاء هذا البائس الذى تظهرين له بعض العجلة ، فان بعض التغيير فى معاملتك إياه يخفف من ثقل مصابه ، ويعينه على احتمال سمته وعذابه . وإذا كانت حصانة صدره وحرج أمره لا يبلغان موضع الرأفة من نفسك فتريدين أن تتوسلى بالحق إلى إهلاكه ، فانك تستطيعين أن تفعلى ولن تجدينه إلا صابراً لا يشكو ، وساكتاً لا يئن ؛ انه يؤثر أن يهلكه أمرك ، على أن تهلكه فورة طائشة تجعله أتيما فى نظرك . وآخر القول أن لك أن تحكمى فى أمرى وتتصرفى فى مصيرى ، ولى أن أقول إنى واضح وجه العذر فى أن أرتّبَ فى نفسى هذا الأمل الجرىء ؛ وإذا قرأت هذه الرسالة فقد فعلت كل ما أريد أن أطلبه منك ؛ على أننى لم أطلب شيئاً يجوز عليه الرفض حتى أخشاه

(يتبع)

(الزيات)